المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني

محماد بن محمد رفيع *

الملخص

يتناول هذا البحث رصد الأسس المنهجية التي أسس عليها القرآن الكريم مفهوم المشترك الإنساني، وتحليل هذه الأسس وتعليلها. وهذه الأسس قسمان تكوينية وتشريعية، يتكاملان في بناء مشترك المبادئ والقيم الخلقية بين الناس على اختلاف انتماءاتهم، في ضوء الأولويات المقاصدية القرآنية الراهنة في بناء المشترك الإنساني.

ويهدف البحث إلى بناء أسس للتواصل بين مختلف الحضارات والثقافات الإنسانية، وفتح مدخل واسع للتعاون في القضايا المشتركة وتدبير هوامش الاختلاف.

كلمات مفتاحية: المنهج القرآني، المشترك الإنساني، مشترك المبادئ والقيم الخلقية، مقاصد القرآن.

The Qur'anic Method in Building Human commonalities

Abstract

This paper aims to discern and analyze the methodological bases upon which the Qur'an based the notion of shared human issues, and the analysis of and reasoning behind these bases. These bases fall into two categories: formative and legislative; they are both integrated in building the mutual principles and moral values among people regardless of their differences, in light of the Qur'anic intents.

The paper seeks to build bases for civilizational and cultural interaction, open avenues for broad cooperation in common issues, and marginalizes differences.

Keywords: Qur'anic methodology, human shared issues, mutual principles, mutual moral values, Qur'anic intents.

* أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة جامعة محمد بن عبد الله بفاس- المغرب. البريد الإلكتروني: agamroule@yahoo.fr

تم تسلّم البحث بتاريخ ١٨/٦/٢٠١٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢/١٢/٢٠١٠م.

مقدمة:

لعل من جملة قضايا القرآن الجديرة بالدراسة، تلكم المراجعة النقدية الشاملة للتراث الديني والقيمي والفلسفي في المجتمعات البشرية، وهي المراجعة التي استندت إلى آليات الحِجاج وقواعد البرهان، بخطاب واقعي المنطلق وإنساني المقصد، خلص المنهج القرآني من التنبيه إليها، إلى تأسيس مشترك القيم الإنسانية، من حيث هو مدخل تواصلي إنساني لنشر دعوة التوحيد بين خلق الله أجمعين.

فالبحث في مفهوم المشترك الإنساني بحث في المبادئ والقيم الخلقية المشتركة بين الناس، على اختلاف انتماءاتهم الحضارية والمذهبية والثقافية والدينية، من أجل بناء أسس للتواصل بين مختلف الحضارات والثقافات الإنسانية، وفتح مدخل واسع للتعاون في القضايا المشتركة، وتدبير هوامش الاختلاف. فمن تمام حسن تدبير الاختلاف بين الناس الكشف عن المؤتلف بينهم، الذي غالباً ما تصرفه حدةُ الاختلاف، حتى كأن المختلفين لا ينتظمهم ناظم ولا يربطهم رابط.

ولسنا نقصد بالمشترك الإنساني المفهوم العولمي غير المنضبط، الهادم للخصوصيات الثقافية للشعوب، المسكون بهاجس الهيمنة وعقدة المركزية الحضارية للغرب، وإنما نريد بالمشترك الإنساني تلك القيم الإنسانية الموجودة في جوهر كل الأديان والحضارات والمدارس الفكرية؛ القيم التي تلبي حاجيات الإنسان الفطرية من حيث هو إنسان، كونها قيماً ومبادئ عابرة للخصوصيات الثقافية للأمم، وهي ما انغرس في فطرة الإنسانية من حب العدل وإنصاف المظلوم وبغض الظلم، وغيرها من مبادئ حقوق الإنسان، ومبادئ المروءة الإنسانية، التي تؤول في العمق إلى أثرة من علم النبوات والرسالات السابقة. فما فطر عليه الناس من قيم البر، يحتاج إلى من ينفض عنه ركام الجاهليات.

ولما كانت أحوال العالم وما فيه من حركات اضطرارية تجري وفق إرادة الله التكوينية، فإن أفعال الإنسان الاختيارية محكومة بإرادة الله التشريعية، من خلال وحيه الخاتم في نصه القرآني وبيانه النبوي. قال الحكيم النورسي في بيان هذه الحقيقة: "الشريعة الإلهية اثنتان

وهما آتيتان من صفتين إلهيتين... أولاهما الشريعة التكوينية آتية من صفة الإرادة الإلهية، وهي الشريعة والمشيئة الربانية التي تنظم أحوال العالم -الإنسان الأكبر-، وحركاته التي هي ليست اختيارية... أما الأخرى فهي الشريعة الآتية من صفة الكلام الإلهي؛ هذه الشريعة تنظم أفعال الإنسان الاختيارية، ذلك العالم الأصغر، وتجتمع الشريعتان أحياناً معاً."[١]

فالبحث في فعل الإنسان المادي والفكري من منطلق الوحي، يعد المسلك المنهجي الأمين في بناء فعل إنساني سوي، ينسجم مع مقتضى الشريعتين: التكوينية والتشريعية، وإلا كان الاحتكام لمرجعية بشرية قاصرةٍ -حكماً وفعلاً- عن الجمع بين مقتضى الكون والشرع، وعاجزةٍ -تبعاً- عن مَعْيَرَة الفعل الإنساني وفق مصلحة الإنسان الحقيقية. فالبحث عن الأسس الكلية التي أقام عليها القرآن بنيان مفهوم المشترك الإنساني، إنما هو ضمانٌ للأمان في بناء المعارف والمفاهيم الأصيلة النافعة للإنسانية، والتماسٌ للكمال فيما يجمع شتات الإنسان من مبادئ جامعة ومتكاملة، أرساها الوحي كتاباً وسنةً، نصاً ومقصداً، تكويناً وتشريعاً، وهو ما آثرنا تسميته بالمنهج القرآني.

وعن طريق هذا المنهج نسعى إلى تقديم دراسة تأصيلية تحليلية لمفهوم المشترك الإنساني الذي يهيمن على الفكر الإنساني المعاصر، انطلاقاً من نص الوحي ومقصده، لنثبت أن ارتباط هذا المفهوم في الثقافة الغربية بخصوصيات تاريخها الفكري ومنعرجاته، وبمفهوم حقوق الإنسان -الوثيقة المعروفة في القرن الماضي المنجزة في حضن هذه الثقافة- لا يلغي حقيقة مفهوم المشترك الإنساني وأصالته ونصاعته في كتاب ربّنا وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام. فقد أعلن ﷺ منهج الإسلام في التعامل مع القيم الإنسانية بكل وضوح حين قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق،"[٢] وجسَّد ذلك عملياً حين أيَّد حلف الفضول، لما كان فيه من قيم العدل والإنصاف؛ إذ قال: "ما أحب أن أنكثه وأن لي حُمر

[١] النورسي، سعيد. **كليات رسائل النور**، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، القاهرة: شركة شوزلر، ط٢، ١٩٩٢م، الكلمات/ الكلمة٣٣/ اللوامع، ص٨٧٦.

[٢] البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **السنن الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٩٩٤م، باب بيان مكارم الأخلاق، ومجمع الزوائد باب مكارم الأخلاق والعفو عمن ظلم.

النِّعم."[٣] فما كان من مكرمة أخلاقية في نظام القيم الإنساني، فالإسلام يؤيدها ويعززها، وما كان فيه شائبة سوء، هذبها ودفع بها إلى الطريق الإيجابي الصحيح.

ولعل المشترك الإنساني أصبح الآن ضرورة ملحة للإنسانية، أمام تنامي وقائع العنف واشتعال حروب الدمار وعمليات إفساد البيئة، لذلك دعا "كونغ هانس" إلى ضرورة الاتفاق على ما سماه "global ethic" أو "الأخلاق العولمية"، من أجل إحلال السلام بين الأديان، وهي تتمثل في نظره في مجموعة من القيم التي تمثل الحد الأدنى المعياري للأخلاق، التي يمكن أن تقرها الأديان، ويؤيدها في الوقت نفسه غير المتدينين.[٤] فما الأسس المنهجية التي اعتمدها القرآن الكريم في بناء المشترك الإنساني؟

أولاً: الأساس التكويني لوحدة المشترك الإنساني

يقرر القرآن الكريم أن وحدة المشترك الإنساني حقيقة وجودية كونية، اقتضتها الإرادة التكوينية لفاطر الكون ومن فيه وما فيه، سبحانه، وذلك انطلاقاً من الحقائق الآتية:

١. وحدة أصل الإنسانية:

أخبر الحق سبحانه بوحدة أصل الإنسانية في جملة من آيات كتابه، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

فالإنسانية على امتداد الزمان والمكان، واختلاف الألسن والأعراق والألوان، تؤول بمقتضى هذه الآية إلى أصل واحد، وهي النفس التي منها تناسلت فروعها. ويجمع بين هذه الفروع الإنسانية علاقة أصيلة ثابتة، اقتضاها الأصل الموحد، وهي علاقة الرحم الآدمية، بغض النظر عن الدين والعرق واللون والحضارة. وينبغي النظر إلى هذه العلاقة بما تستوجبه من حقوق تتعين مراعاتها، تحت طائلة الحساب الأخروي، كما نفهم من قوله

[٣] المرجع السابق، باب إعطاء الفيء على الديوان ومن يقع به البداية.

[4] Kung Hans. Towards a universal civilization in Islam and Chris tam-Muslim Relations vol. 11 No. 2 ; (July 2000) ; P 230.

عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) ومن قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات:١٣)

ووحدة أصل النوع أمر مدرك بالضرورة، كما يقول الطاهر ابن عاشور: "لأنَّ كل إنسان إذا لفت ذهنه إلى وجوده علِمَ أنَّه وجود مسبوق بوجود أصل له بما يشاهد من نشأة الأبناء عن الآباء، فيوقن أن لهذا النوع أصلاً أول ينتهي نشوءه."[٥]

ويتأكد هذا المبدأ القرآني في تقرير حقيقة وحدة الإنسانية في أصلها بالبيان النبوي، في قوله ﷺ: "ألا إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى،"[٦] وفي قوله عليه السلام: "كلكم لآدم وآدم من تراب،"[٧] وفيما كان يردده في دعائه عليه الصلاة والسلام: "اللهم ربنا رب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة."[٨]

فانطلاقاً من لبنات مفهوم الوحدة في النفس والأبوة والأخوة الجامعة للإنسانية، أسس القرآن الكريم قواعد متينة للمشترك الإنساني من أجل التعارف والتعاون والتكامل بين خلق الله أجمعين، وأقصى أطروحات التميز العنصري والتفوق العرقي، أو الاصطفاء الإلهي الطائفي مثلما يدعي اليهود أنهم شعب الله المختار وإن فعلوا ما فعلوا، من سعي في الأرض فساداً، وسفك دماء الأبرياء والأنبياء، ونقض العهود. وأثبت الله تعالى معيار التفاضل الذي يسع الجميع ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)

---

[٥] ابن عاشور، الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ج١، ص٣٩٥.

[٦] ابن حنبل، أحمد. **مسند أحمد**، القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت، ح٢٣٥٣٦.

[٧] الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٢م، كتاب التفسير بلفظ آخر. انظر أيضاً:

– الربيع بن حبيب. **مسند الربيع**، تحقيق: محمد إدريس عاشور، بيروت– عُمان: دار الحكمة، مكتبة الاستقامة، ط١، ١٤١٥هـ، من حديث جابر بن زيد بلفظه.

[٨] الربيع بن حبيب. **مسند الربيع**، مرجع سابق، باب ما يقول الرجل إذا سلم، انظر أيضاً:

– النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب. **السنن الكبرى**، شرح: السيوطي، حاشية: السندي، ط١، ١٩٣٠م، في كتاب عمل اليوم والليلة.

– ابن حنبل. **مسند أحمد**، مرجع سابق، من حديث زيد بن أرقم.

– أبو يعلى، أحمد بن علي. **المسند**، تحقيق: رشاد الحق الأثري، فيصل آباد: إدارة العلوم الأثرية، ط١، ١٤٠٧هـ، من حديث زيد بن أرقم.

فبإشاعة هذا المفهوم بين مختلف الثقافات يحدث التقارب، وتزول كثير من الحواجز، وتقل حالات الظلم والتقاتل لأتفه الأسباب بين الشعوب، وإلا فسنة التدافع بين الناس ماضية إلى يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

٢. وحدة العبودية التكوينية الاضطرارية:

إن وحدة الربوبية للخالق سبحانه، تستدعي وحدة المربوبية في حق الناس جميعاً، فجميع الخلق متساوون في الخضوع التكويني الاضطراري لخالقهم سبحانه، من خلال القوانين الثابتة المطردة التي تنتظم هذا الكون بأجمعه، ولا يسع أحداً من خلق الله أن يخرج عن هذا المبدأ الكوني الموحد لمخلوقات الله، كما قرر الحق سبحانه في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣)، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ (الرعد: ١٥)، وقوله عزّ من قائل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

فمبدأ العبودية الاضطرارية الذي ينتظم جميع المخلوقات، وعلى رأسها الإنسان، أساس مهم في التقريب بين الناس، وفي التقليل من الخلاف بينهم. فظهور دواعي الائتلاف بين الناس أدعى للحد من عوامل الاختلاف بينهم.

٣. وحدة الوظيفة الكونية:

إن وحدة العبودية الاضطرارية للناس بمقتضى الإرادة التكوينية لله تعالى، تستلزم للإنسان وحدة الوظيفة في هذا الكون التي قصدها الحق سبحانه قصداً كونياً من خلق الإنسان في هذا الكون، فأخبرنا سبحانه بذلك قائلا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) والمقصود بخلافة الإنسان هنا -كما يقول الطاهر

بن عاشور-: "قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض،"[٩] مصداقا لقول الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وهذه الوظيفة التكوينية راجعة إلى ما يمتاز به الإنسان من كونه "الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقته أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان؛"[١٠] إذ جاء هذا المخلوق في أحسن تقويم؛ جسماً وفكراً وإرادة، ليقوى على العمارة وبناء الحضارة، بما يخدم القصد الكلي الكوني في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ولعل انتظام سلوك الإنسان في تفاعله مع هذا الكون، في سلك هذه الوظيفة التكوينية الكلية، دعامة أخرى تضاف إلى غيرها من الدعامات في بناء حقيقة المشترك الإنساني.

٤. وحدة القدرة على الإدراك المعرفي:

لقد هيأ الله لكل إنسان بمقتضى إرادته التكوينية، المؤهلات الأساسية في إدراك المعرفة من آيات كتابه المنظور، من الحواس وإرادة البحث والاستكشاف والعقل، وذلك على وجه المساواة بين الناس جميعاً، فلا حق لأمة ولا جماعة أن تدعي احتكار العلم، أو التفرد بالقدرة على استنباط المعرفة؛ لأن الناس متساوون في تلك المؤهلات لحظة ميلادهم، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، وربط الحق سبحانه بين العلم ووسائل إدراكه، فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)، وفي سياق امتنانه على بني الإنسان ذكر نعم مؤهلات الإدراك المعرفي، بعد نعمة التسوية الجسدية والروحية، فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٩).

---

[٩] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٣٩٩.

[١٠] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وإنما يتفاوت الناس في المؤهلات الفطرية الشخصية، التي لا تلغي المشترك بينهم في الكفاءات العامة. والخطاب القرآني للإنسان إنما يحرضه على التوظيف الأمثل للمشترك من الكفاءات بين كل الناس في اقتناص المعرفة من خلال الآيات المبثوثة في صفحات كتاب الكون، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وضَمِنَ الخطابُ القرآني استمرارَ تجدُّد المعرفة في الزمان كلما أحسن الإنسان توظيف قدراته المعرفية، فقال عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)، كما لفت الخطاب القرآني انتباه الإنسان إلى مجال حيوي آخر أقرب من الإنسان نفسه لتوظيف مشترك الكفاية (compétence commune)، فقال سبحانه: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١).

فانتقال المشترك الإنساني هنا إلى أعماق الإنسان، وفي أشرف ما يملكه هذا الإنسان، وهو القدرة على المعرفة، إنما هو بناء متين عميق لدائرة المشترك الإنساني.

٥. وحدة الطهارة الفطرية:

خاطب القرآن الإنسان فوصفه مخلوقاً مكرَّماً طاهراً، يمتلك القدرة والاستعداد لبلوغ أقصى درجات الكمال البشري، وهو المعرفة بالله وبخلقه وبشرعه؛ إذ لا يوجد لدى أي إنسان أو طائفة ما يعوق إمكانية الارتقاء الكمالي، ويستوي في ذلك الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم، يقول الطاهر ابن عاشور: "لو ترك الإنسان وتفكيره، ولم يلقن اعتقاداً ضالاً لاهتدى إلى التوحيد بفطرته."[١١] وفطرة الإنسان حسب ابن عاشور: "ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً، فمَشْيُ الإنسان برجليه فطرةٌ جسدية...

[١١] المرجع السابق، ج٢٠، ص٩٠.

واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية،"[١٢] وهذا الذي سماه القرآن ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

فالإنسان بهذا المقتضى يولد نقياً طاهراً على الفطرة، لا يحمل وزر غيره أو خطيئة أجداده إرثاً موروثاً، أو ما يعرف في المسيحية "بالخطيئة البشرية"، وإنما تتعرض فطرة الإنسان لما يشوّهها ويغيّرها بعوامل التنشئة الاجتماعية، وغياب الحصانة التربوية، كما أخبرنا الحق سبحانه على لسان نبيه عليه السلام حين قال: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالَتْهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهُم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانا."[١٣] وأكدَّه نص البيان النبوي: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه."[١٤]

فالبيان النبوي فيه إخبار بحقيقتين: كونية وهي ما يولد عليه كل إنسان من رصيد النقاء والصفاء والاستقامة، ويشكل رصيداً مشتركاً بين جميع الناس، وحقيقة شرعية تكليفية، وهي مسؤولية مؤسسات التنشئة الاجتماعية عن حماية فطرة الإنسان من عوامل المسخ التربوي، التي تعيق التواصل بين المختلفين من الناس، وتحول دون الاستماع لخطاب الفطرة في كتاب الله تعالى، وهذا يقتضي تضافر جهود مختلف الأمم لحماية الفطرة تربوياً وإعلامياً وثقافياً من الحرب على القيم الخلقية التي تجري الآن بشراسة في العالم، وتشكل في العمق تحدياً خطيراً لمجتمعات العالم.

٦. وحدة الكرامة الإنسانية:

قرر الحق سبحانه بإرادته التكوينية أن يصطفي بني آدم من بين كثير من خلقه ليرفعهم إلى مقام التكريم، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

---

[١٢] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[١٣] مسلم بن الحجاج النيسابوري، **الجامع الصحيح**، بيروت: منشورات المكتب التجاري، د.ت، باب في صفة يوم القيامة، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

[١٤] البخاري، محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، كتاب الجنائز.

وصور التكريم للإنسان ومظاهره متعددة، منها ما ينتظمه التكريم الجسدي ممثلاً في الهيأة البشرية القويمة، وما يتبع ذلك من التناسق في حركاته وسلوكه خلافاً لغيره من المخلوقات،[١٥] مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (التغابن: ٣)، وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴾ (التين: ٤).

ومنها ما ينتظمه التكريم المعنوي ممثلاً فيما يتميز به الإنسان من قوة العقل والقدرة على التواصل بقوة البيان الذي علمه الله إياه، كما أخبرنا في قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ٣-٤). يضاف إلى ذلك، ما ذكرناه آنفا من نقاء الفطرة وامتلاك وسائل إدراك المعرفة، وكل ذلك إنما هي أوصاف وأحكام تكوينية للنوع الإنساني، لا يستقل بها إنسان دون آخر لأي سبب من الأسباب، لأن الناس كُرِّموا لآدميتهم قبل أن يتوزَّعوا أدياناً ومذاهب وملاً ونحلاً. لذلك وجدنا النبي ﷺ يضرب أروع مثال في تكريم الإنسان مهما كان معتقده ومذهبه، وذلك حين وقف وقفة إجلال وتكريم لجنازة يهودي، فلما قيل له في ذلك، قال: "أليست نفساً؟"[١٦]

غير أن منبع كرامة الإنسان إنما تكمن في تحرره من عبودية غير الله تعالى، حتى لا يبتعد عن أصل تكريمه وتشريفه، فعبودية غير من كرَّم سقوطٌ فيما يناقض التكريم وينافي التشريف، كما أن الدخول في سلك العبودية لله تعالى صعودٌ في مدارج التكريم، مصداقاً لقول ربنا سبحانه: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣).

ثانياً: الأساس التشريعي للمشترك الإنساني

لم يكتف المنهج القرآني بتأسيس المشترك الإنساني على الأساس التكويني، وإنما زاوج ذلك بأساس تشريعي، احتفاء بأهمية قضية المشترك الإنساني في شرع الإسلام. لذلك

[١٥] البغوي، الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل**، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٢م، ص٧٤٩. انظر أيضاً:
- ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٥، ص١٦٤-١٦٥.

[١٦] البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، باب من قام لجنازة، كتاب الجنائز. انظر أيضاً:
- مسلم. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، باب القيام للجنازة، كتاب الجنائز.

ألفينا المنهج القرآني يربط القضية تشريعياً بجوانب متعددة للشريعة على نحو متكامل، مما مكن من تقديم مبدأ المشترك الإنساني على قواعد متينة، ليستقرَّ حقيقة كونية وتشريعية، لا إشارات وتلميحات لقضية هامشية فحسب. فما الأسس التشريعية التي يتأسس عليها المشترك الإنساني في المنهج القرآني؟

١. الأساس العقدي للمشترك الإنساني:

يتمثل البعد العقدي للمشترك الإنساني في حقيقة التوحيد القائمة على ركيزتين: وحدة الألوهية التي ينفرد بها الخالق سبحانه، ووحدة العبودية التي يشترك فيها الناس أجمعون.

والتوحيد هو المضمون العقدي المركزي الثابت، الجامع بين جميع الشرائع والديانات التي جاءت بها الأنبياء والرسل عليهم السلام، منذ آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

وقد أكّد الرسول ﷺ هذا المشترك التوحيدي بقوله: "إنا معشر الأنبياء ديننا واحد، وأنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي،"[١٧] وقوله عليه الصلاة والسلام: "الأنبياء أخوة لعَلَّات دينُهم واحد وأمهاتُهم شتى."[١٨]

فإذا اختلفت الشرائع باختلاف الأمم والحقب، بمقتضى قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ (المائدة: ٤٨)، فالمشترك التوحيدي يجمعها وينتظمها في سلك الدين الواحد الجامع، وهو الذي سمَّاه ابن تيمية الإسلام العام.[١٩] وهذا واضح ومطّرد في دعوات الأنبياء والرسل التي توالت على الإنسانية، فقد كان شعارها الإسلام وقضيتها الأولى التوحيد.

---

[١٧] البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب التفسير، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها.

[١٨] المرجع السابق، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها.

[١٩] ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، الرياض: مطابع المجد التجارية، د.ت، ج٤، ص٣٣.

فنبي الله نوح عليه السلام، ظل يدعو صامداً وصابراً قومه، إلى قضية التوحيد طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال الله تعالى في حقه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ (نوح: ٢-٣)، وهي دعوة لا تخرج عن مقتضى الإسلام ومعناه. لذلك عدّ نوح عليه السلام نفسه من المسلمين بهذه الدعوة، فقال تعالى على لسان نبي الله نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٧٢). ونظر القرآن لدعوة نبي الله إبراهيم على أنَّها دعوة توحيدية إسلامية؛ إذ أوصى إبراهيم بنيه أن يحافظوا عليها في الأجيال اللاحقة، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢). وحافظ نبي الله يعقوب على وصية جَدِّه إبراهيم أن تستمر في الذرية، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣). واستمر المشترك التوحيدي الإسلامي في دين يوسف عليه السلام، حفاظاً على الوصية الإبراهيمية، وذلك قول الله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يوسف: ١٠١)، وحافظ سيدنا موسى عليه السلام على الوصية في دعوته لبني إسرائيل، كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤).

وقد أخبرنا القرآن الكريم أنَّ جميع أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام كانوا محافظين في دعواتهم على المشترك التوحيدي الإسلامي، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة: ٤٤).

ولم يخرج نبي الله عيسى عليه السلام في دعوته ورسالته، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل عن المحافظة على المشترك التوحيدي، كما أخبرنا الحق سبحانه في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا

﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢). فلما ختم الله رسالاته برسالة الإسلام، ورسله وأنبياءه بسيدنا محمد ﷺ، حكم الحق سبحانه أن تكون رسالة الإسلام رسالة البشرية جمعاء، فجاءت في صورة الخلاصة التصحيحية النهائية لجميع الشرائع السابقة، لذلك قضى أحكم الحاكمين بصورة حاسمة: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩).

وبناء على هذا التكامل بين شرائع الله تعالى، كان الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله ركناً ركيناً في العقيدة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦)، كما أن تكذيب رسول من الرسل تكذيب للرسل جميعاً، وكفر بهم، لأنَّ الرسل بعثوا من عند الله جميعاً برسالة المشترك التوحيدي، فالتفريق بينهم لا مسوغ له، قال الله تعالى: ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وقد حكى لنا القرآن الكريم مصير الخزي والعار في الدنيا والآخرة لمن كذّبوا الرسل من المجتمعات والأمم السابقة، فقال تعالى عن مكذبي نوح عليه السلام: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفرقان: ٣٧)، وقال عنهم أيضا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (الشعراء: ١١٧-١٢٠).

وعن هلاك قوم عاد بسبب تكذيب سيدنا هود عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٩)، ويقول عن تكذيب قوم لوط: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (الشعراء: ١٦٠- ١٦٢)، فكانت النتيجة قول الله تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٧٠-١٧٢)، وهكذا كان مصير سائر الأمم والأقوام الذين كذبوا بأنبياء الله ورسله.

نخلص إلى أن هذا التأسيس العقدي للمشترك الإنساني، كما تتبعنا تفاصيله فيما سبق، يضعنا أمام المكانة العليا لهذه القضية في المنهج القرآني.

٢. الأساس المقاصدي للمشترك الإنساني:

إذا تقرر أنَّ القرآن كلّيُّ الشريعة "وعمدة الملَّة وينبوع الحكمة وآية الرسالة.. لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه؛"[٢٠] لأنَّ القرآن هو الأصل المتضمن للمقاصد والكليات. واستنطاق آياته يدل على قصده إلى الحفاظ عليها، قال الشاطبي: "فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينيات، ومكمل كل واحد منها."[٢١]

ومضمون تلك الكليات القرآنية المعنوية إنَّما هو مصالح الخلق، قال العز بن عبد السلام: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها،"[٢٢] لذلك قرر أهل المقاصد أنَّ قصد الشارع من إنزال شريعته حفظ مصالح خلقه في العاجل والآجل.

فهذه المصالح التي جاءت الشريعة لحفظها لا يقوم لها كيان بمجرد الدعوة إلى جلبها وتنميتها، وإنما بوقايتها وتأمينها من متوقع الاختلالات، قال الشاطبي: "والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود، والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم."[٢٣]

غير أنَّ هذه المصلحة الإنسانية التي قصدت الشريعة رعايتها بأحكامها الملائمة هي في الوجود على مراتب متفاوتة:

---

[٢٠] الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ج٣، ص٣٤٦.

[٢١] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[٢٢] العز بن عبد السلام. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، مصر: طبعة الكليات الأزهرية، د.ت، ج١، ص٨.

[٢٣] الشاطبي. **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص٧.

أ. الضروريات وحفظ المشترك الإنساني:

لقد حددت الشريعة على وجه القطع قوام حياة الإنسان الكريمة في كليات خمس، عبر عنها الغزالي بقوله: "ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة، ودفعها مصلحة."[٢٤]

فإذا بلغت هذه الكليات مرتبة مقاصد الشريعة الضرورية، فلأنها القيم الأساسية للحياة الإنسانية، والأصول المحققة للاستخلاف، وقاعدة المشترك الإنساني التي تجدها مرعيّة "في كل ملة، بحيث لم تختلف فيها الملل، كما اختلفت في الفروع، فهي أصول الدين، وقواعد الشريعة، وكليات الملة."[٢٥]

ونظراً لحيوية هذه المصالح، رتَّبتها الشريعة في سلَّم الضروريات، قال الغزالي: "وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح،"[٢٦] وعليه تكون الجناية على هذه المصالح من أكبر المفاسد في تشريعات كل الأمم، قال الغزالي: "وتحريم تفويت هذه الأمور الخمسة، والزجر عنها، يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق، ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر، والقتل، والزنى، والسرقة، وشرب المسكر."[٢٧]

فقد شرع لحفظ هذه الضروريات الخمس من حيث الوجود ما يحقق وجودها في المجتمع، ومن حيث البقاء والاستمرار ما ينميها و يحميها من أسباب الفساد والزوال. فكل ما أقرته الشريعة من مصالح تجتلب من مدخل الأوامر الشرعية، يتكفل النظام الجنائي الإسلامي بتأمينه، ودفع كل اختلال يتهدده من مدخل النواهي التكليفية.

---

[٢٤] الغزالي، أبو حامد. **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق: مصطفى أبو العلا، القاهرة: مكتبة الجندي، ج١، ص٢٧٨.

[٢٥] الشاطبي. **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص١٩.

[٢٦] الغزالي. **المستصفى من علم الأصول**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧٨.

[٢٧] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ومن خلال هذه الثنائية المقاصدية في الجلب والدفع، يكون النظام الجنائي الإسلامي قادراً بامتياز على تأمين المصالح الحيوية المختلفة، والحاجيات الحقيقية للإنسان، وعلى رأسها تحقيق العدل، الذي هو أساس حياة الأفراد والأسر والأمم والحضارات، ونفي الظلم في جميع صوره، وهل هلكت الأمم، ودمرت الحضارات إلا بجريمة الظلم، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ (القصص: ٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الأنعام: ٤٧). فمقصد الشريعة من رعاية هذه المصالح ليس إرضاء هوى الفرد، أو نزعاته الشخصية، وإنما حماية المصالح الاجتماعية الحقيقية للإنسان. وقد وضع التشريع الجنائي الإسلامي نصوصاً وعقوباتٍ زاجرة وعادلة محددة لكل جناية على تلك المصالح الضرورية، والحقوق الأساسية، على نحو متفاوت حسب خطورة الجناية، وقوة المصلحة، تحت مسمى الحدود،[٢٨] ودفع الفساد عن الناس هو مقتضى العدالة الحقة.[٢٩]

ب. الحاجيات وتنمية المشترك الإنساني:

إذا كان موضوع مقاصد الشريعة في شقه الضروري حفظ مقومات الحياة الإنسانية، فإنه في هذا الشق الحاجي يركز على استكمال الحفظ للمشترك الإنساني في الحياة، بما يلبي حاجيات الإنسان الحقيقية، ويرفع عنه الحرج، فتستقيم الحياة بلا ضيق ولا كدر.

فتلبية الحاجيات الحقيقية للإنسان مصلحة معتبرة، تفضي إلى التوسعة ورفع الحرج، وتكمل المصالح الضرورية، ولذلك جاءت الأحكام الشرعية على وجهين: وجه يقصد إلى تشريع المصالح الملبية لحاجيات الناس، ووجه ثان يهدف إلى حماية تلك المصالح كالاستقرار مما ينافيها من المفاسد، والطمأنينة، والحرية الفكرية والشخصية. وكل اعتداء

---

[٢٨] رفيع، محماد. "الأساس المقاصدي للنظام الجنائي الإسلامي وأثره في حفظ العدالة الإنسانية"، المغرب: **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، ظهر المهراز بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، ع١٦، ٢٠٠٩م، ص٢٩٩، ففيه تفاصيل ذلك.

[٢٩] التونجي، عبد السلام. **مؤسسة العدالة**، طرابلس، ليبيا: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ٢٠٠٧م، ص٥٤.

على هذه المصالح تحدد له عقوبة تعزيرية اجتهادية وفق مقاصد العقاب الشرعي؛ إذ الاعتداءُ على ما الإنسان مفتقرٌ إليه، جنايةٌ.

وبذلك تكون مقاصد الشريعة شديدة الارتباط بحياة الإنسان وحاجياته المتجددة، ساعية لتنميتها وحمايتها بالاجتهاد المقاصدي المتواصل، لتقدير المصلحة الحاجية التي تتغير بتغير الزمان والمكان والحال، وتحديد وسائل حفظها وجوداً وعدماً.

ودوران الأحكام الشرعية على حماية المصلحة الحاجية، هو حماية للمصالح الضرورية؛ إذ الحاجيات سياج للضروريات، قال الشاطبي: "فإذا حوفظ على الضروري، فينبغي المحافظة على الحاجي."[٣٠]

من خلال هذا، يتبين أن مقاصد الشريعة ارتفعت بمستوى الحياة الإنسانية من تأمين المقومات الضرورية، إلى تأمين الحاجيات الموسعة للحياة التي تنتفي فيها المشقة والحرج.

ت. التحسينيات وتحسين المشترك الإنساني:

تمثل المقاصد التحسينية الضلع الثالث في مثلث النظام المقاصدي الشرعي، ويتعلق الأمر بحفظ المصالح الزائدة على المصالح الضرورية والحاجية، التي جرت مجرى التحسين والتزيين.[٣١]

وشأن هذه المرتبة المقاصدية أن تنمي وتحمي المصالح التي تجعل حياة الإنسان في أكمل صورة وأجملها، مرتبطة بالحاجيات ارتباط تكامل، فكل إخلال بمصلحة من هذه المصالح، يقدر لها عقاب رادع بحزم تعزيراً لا حداً؛ لأنه اعتداء على حقوق الإنسان المكملة لما سواها من الحقوق الضرورية والحاجية، يقول الشاطبي: "فالمتجرئ على الأخف بالإخلال به، معرض للتجرؤ على ما سواه."[٣٢]

---

[٣٠] الشاطبي. **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج٢، ص١٣.
[٣١] المرجع السابق، ج٢، ص١٠.
[٣٢] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

من خلال هذه المعالجة العادلة المتكاملة للمشترك الإنساني على المستويات الثلاثة، التي عزّ نظيرها في تشريعات الأمم الجنائية، يتأكد أن النظام المقاصدي الشرعي يمتلك القدرة الهائلة والمرونة الكافية لحماية، المشترك الإنساني وتنمية، تارة بأحكام الإيجاد والتنمية، وأخرى بأحكام الوقاية والتأمين ممثلة في النظام الجنائي الشرعي.

٣. الأساس العملي للمشترك الإنساني:

لم تكتف الشريعة الإسلامية بالتأسيس النظري المقاصدي لقضية المشترك الإنساني، وإنَّما عزَّزت ذلك بالتأسيس العملي، فقرَّرت الشريعة عموماً، والقرآن خاصة، جملة أحكام فقهية أرست قواعد التعامل اليومي العادل مع المخالف الديني والثقافي، على النحو الذي يقوّي أواصر التقارب مع المخالف، ويضمن معه بناء المشترك الإنساني، علماً بأنَّ طبيعة العلاقة مع المخالف في الحياة اليومية في مرجعية أي مجتمع هي المحددة لمساحة المشترك الإنساني تمديداً أو تقليصاً. فمن القضايا العملية الشرعية التي يمكن التأسيس عليها في تدبير المختلف وبناء المشترك مع المخالف ما يلي:

أ. وجوب حماية المخالف:

إذا كان المخالف معيناً على الحقيقة، ومنافساً على الإبداع والإنتاج، فحمايته وصيانة حقوقه أمر مطلوب بمقتضى الفطرة الإنسانية، غير أنَّ حماية المخالف في نظر الشريعة حماية شاملة لجميع حقوقه في ذمة الله ورسوله، منها:

– تأمين حياته: عدَّ الشارع حماية حياة المخالف في المجتمع الإسلامي من مسؤولية المسلمين تحت طائلة الوعيد الشديد في قوله ﷺ: "من قتل معاهداً لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً،"[٣٣] وفي قوله عليه الصلاة والسلام: " أيما رجل آمَّن رجلاً على ذمته ثم قتله، فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول كافراً."[٣٤]

[٣٣] البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.
[٣٤] ابن جنبل. **مسند أحمد**، مرجع سابق، من حديث عمرو بن الحمق، ح٢٣٧٥٢. انظر أيضاً:

وذهب ابن حزم إلى "أن من كان في الذمة وقصده العدو في بلادنا، وجب الخروج لقتالهم، حتى نموت دون ذلك صوناً لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، لأنَّ تسليمه إهمال لعقد تلك الذمة."[٣٥]

وقال القرافي في الموضوع نفسه: "فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الإذاية أو أعان على ذلك، فقد ضيَّع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، وذمة الإسلام."[٣٦]

فهذه الأحكام الفقهية وغيرها نماذج عملية وشواهد دالة على حسن اهتمام الشريعة بالمخالف، من حيث توسيع دائرة المشترك معه، وفتح أبواب التواصل معه، وهو ما يجعل المخالف يقتنع تماماً بأن الضامن الحقيقي للمشترك الإنساني شريعة الإسلام.

- الحماية الدستورية لمصالحه:

يتساوى المسلم مع مخالفه الديني والثقافي أمام القانون المدني والجنائي وأمام القضاء، وهي حقوق ثابتة مقدسة مشتركة غير قابلة للإلغاء إلا في حالة نقض المخالف العهدَ، ما تؤكده الصحيفة الدستورية النبوية الناظمة لمجتمع المدينة التعددي: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم وأمثلتهم، لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم، لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، ولا واقه من وقاهيته على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران ومن أكل منهم ربا من ذي قبل، فذمتي منه بريئة ولا يؤخذ منهم رجل

- ابن حبان، محمد. **الجامع الصحيح**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م، كتاب الجنايات، ح٥٩٨٢.

[٣٥] ابن حزم، محمد بن علي. **مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ص٨٥.

[٣٦] نقلاً عن:

- حوى، سعيد. **فصول في الإمرة والأمير**، بيروت: دار عمار، ١٩٨٨م، ص٨٥.

بظلم آخر، ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً، حتى يأتي أمر الله، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم."[٣٧]

قال محمد عمارة معلقاً على الصحيفة النبوية: "فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول عقد اجتماعي وسياسي وديني –حقيقي وليس مفترضاً ومتوهماً– لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءا من الرعية والأمة والدولة... له كل الحقوق وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق."[٣٨]

وتزداد حماية حقوق المخالف قداسة حين ينصب الرسول ﷺ نفسه محامياً أميناً للدفاع عنها في محكمة الآخرة بين يدي الله؛ إذ قال: "من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة."[٣٩]

– حماية الحرية الدينية:

من مقتضيات الوثيقة النبوية الدستورية حماية الحقوق الدينية للمخالفين، انطلاقاً من المبدأ القرآني الثابت في قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) لأنَّ الأمر يتعلق بالعقيدة، والعقيدة اختيار نفسي قلبي يتوقف على الصدق والإخلاص، ولا ينفع معه الجبر والإكراه، لذلك نصت الوثيقة بشكل صريح على حق المخالف في التعبير عن ذاتيته الدينية، بممارسة طقوسه، والعمل بمقتضى شريعته، والاحتفال بأعيادهم الدينية، وحقهم في الاستقلال بالنظام القضائي في أمورهم الخاصة بهم.

وذهب القرضاوي إلى كفالة حق المخالفين في بناء معابدهم وإنشائها، بل ومساعدة الدولة لهم في ذلك.[٤٠]

---

[٣٧] البلاذري، أحمد بن يحي. **فتوح البلدان**، تحقيق: رضوان محمد رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ، ج١، ص٧٦.

[٣٨] عمارة، محمد. "فلسفة الإسلام"، **مجلة حراء**، س٣، ع٩، ٢٠٠٧م ص٥٥.

[٣٩] أبو داود، سليمان بن الأشعث. **السنن**، مصر: المطبعة الأزهرية، ط٢، ١٩٢٩م، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات. انظر أيضاً:
– البيهقي. **السنن الكبرى**، مرجع سابق، كتاب الجزية باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئا بغير أمرهم.

وإقرار هذه الوضعية المتميزة للمخالف في زمن يلغى فيه الآخر ويباد، دليل آخر على أن الشريعة تنظر إلى المخالف نظرة إيجابية تقوم على إنسانية المخالف وكرامته، قبل النظر إلى معتقده ومذهبه، وهذا ما جعل العالم الإنجليزي "سير توماس أرنولد" يقول عن الحرية الدينية التي أقرها الإسلام: "إن بقاء النصرانية الشرقية هو هبة الإسلام."[٤١]

ب. الاندماج الاجتماعي مع المخالف:

أسس القرآن الكريم لمبدأ الاندماج الاجتماعي مع المخالف بما يحقق وحدة اجتماعية على أساس التنوع الديني، وذلك من خلال قضيتين:

- إباحة مؤاكلة المخالف:

من القواعد الاجتماعية المحققة للتواصل الاجتماعي والتلاحم بين أفراد المجتمع التعددي، تبادل الزيارات وحضور المناسبات الاجتماعية مع المخالف، وتبادل الهدايا والاجتماع على الطعام، لذلك قرر القرآن الكريم مبدأ التواصل الاجتماعي مع المخالف الديني في قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ (المائدة: ٥).

ولا شك في أنَّ زيارة المخالف في داره ومواصلته ومؤاكلته ومشاربته وقبول هديته، يزيل الكثير من الحواجز النفسية بين المخالفين، وينمي المشترك بينهم، ويؤسس لتعاون اجتماعي راق مع المخالف الديني.

- إباحة مناكحة المخالف:

لقد جعل القرآن الكريم الآخر الديني من أولي الأرحام حين أقام الأسرة على التنوع الديني، من منطلق قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة:٥).

---

[٤٠] القرضاوي، يوسف. **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٢٠-٢١.

[٤١] سير توماس، أرنولد. **الدعوة إلى الإسلام**، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٧٠م، ص٧٣٠.

فأصبحت الزوجة الكتابية بمقتضى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧) سكنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته كالزوجة المسلمة، يقول يوسف القرضاوي: "تسامح كبير من الإسلام، حيث أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين."[٤٢]

هكذا يمدد القرآن الكريم مبدأ الاندماج الاجتماعي مع المخالف الديني إلى أخص الخصائص، وهي الحياة الزوجية، واللبنة الأساس للمجتمع، وهو ما يجعل المخالف في المجتمع الإسلامي يعيش كامل مواطنته بإيجابية عالية، كما كان الأمر على الأقل زمن النبوة والخلافة الراشدة.

بهذا التأسيس العملي الفريد للعلاقة مع المخالف على قاعدتي حماية الحقوق، والاندماج الاجتماعي، يكون القرآن الكريم قد استكمل شروط بناء وتنمية حقيقة المشترك الإنساني.

ثالثاً: الأولويات المقاصدية القرآنية الراهنة في بناء المشترك الإنساني

لما كان مدار الشريعة على الحكم والمصالح كما ذكر ابن القيم،[٤٣] وكان "القصد العام من نزول القرآن هداية الخلق وإصلاح البشرية، وعمارة الأرض،"[٤٤] لزم تلمُّس تلك المصالح البشرية، وأوجه الإصلاح والعمارة في الأرض في كل زمان ومكان، بوصفها أولويات الزمان في بناء قاعدة المشترك الإنساني وتنميتها.

١. أولوية العدل:

إذا كان العدل في ارتباطه بإعطاء الحقوق يكتسب معنى خاصاً، فإنَّ وروده في الشريعة بأقوى صيغة للتكليف والإلزام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾

[٤٢] القرضاوي. **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، مرجع سابق، ص٦.

[٤٣] ابن قيم الجوزية. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، مصر: مطبعة السعادة، ط١، ١٩٥٥م، ج٢، ص٧ و ج٣، ص٧.

[٤٤] الفاسي، علال. **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، الدار البيضاء: مكتبة الوحدة العربية، ١٣٨٢هـ، ص٨٤.

(النحل: ٩٠)، ووروده كذلك مقصداً أسمى لبعثة الأنبياء والرسل في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، يكتسب به معنى أعم وأشمل حتى عدّه ابن عاشور "الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية وحقوق المعاملات."[٤٥]

وانطلاقاً من هذه المرتبة الراقية لمسألة العدل في القرآن الكريم خاصة والشريعة عامة، قرر ابن قيم الجوزية أن الشريعة "عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل."[٤٦]

فالشريعة بهذا المقتضى تمتلك وحدَها القدرةَ على بناء العدالة الإنسانية المفتقدة. يقول ابن عاشور: "أعلى القوانين في تحقيق العدالة الشرائعُ الإلهية لمناسبتها لحال من شرعت لأجلهم، وأعظمها شريعة الإسلام لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضَّالَّة... بل تبنى على مصالح النوع البشري وتقويمه وهديه إلى سواء السبيل."[٤٧]

ومما يميز مقصد العدل في الرؤية القرآنية، شموليته للكون والإنسان إيجاباً وسلباً حسب تقسيم الإمام النورسي:[٤٨] "أما الإيجابي فهو إعطاء كل ذي حق حقه... فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكل ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة،"[٤٩] أما الشق الثاني السلبي[٥٠] المكمل لسابقه الإيجابي، فهو النظام العقابي الذي وضعه الحق سبحانه ليحفظ دوام الحياة في الدنيا من جانب العدم، وذلك بدرء الاختلال الواقع أو المتوقع في نظام العدالة الإيجابي.

---

[٤٥] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٥٤.

[٤٦] ابن قيم الجوزية. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ج٣، ص١٤.

[٤٧] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٥، ص٩٥.

[٤٨] رفيع، محماد. **جدلية الربط بين السلب والإيجاب في مفهوم العدالة عند النورسي، العدالة لأجل عالم أفضل للإنسانية**، تركيا: المؤتمر العالمي الثامن لبديع الزمان النورسي، ط١، ٢٠٠٧م، ص٤٦٧ فما بعدها.

[٤٩] النورسي. **كليات رسائل النور**، مرجع سابق، الكلمات/ الكلمة العاشرة/ هامش ص٩١.

[٥٠] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

إذا كان العدل الاجتماعي مقصدَ الشريعة الأسمى، وطِلْبةَ كل المستضعفين في الأرض، فإنَّه لا يتمُّ إلا بالتوازن العادل بين الإنتاج والتوزيع الرشيد للثروات بين العباد، وذلك لتقليص الهوة بين فقراء الأرض وأغنيائها، وهذا تحلٍّ أعظم للعدالة الشرعية، في تدبير منافع الناس، فقد أكد النورسي أن من مقاصد الشريعة ألا تتكدس ثروة الإنسان بيد الظالمين، ولا يكنزوها، مستشهداً بقوله تعالى:[٥١] ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤)

٢. أولوية التعارف والتعاون:

التعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أملتها ظروف المشاركة في الدار أو الوطن بالتعبير العصري، وإعمال لروح الإخوة الإنسانية بدلاً من إهمالها، فقد نصَّ القرآنُ الكريم بإطلاق، ومن غير تقييد ولا تخصيص، على أنَّ من مقاصد التنوع بين البشر التعارف والتعاون، فقال تعالى مخاطباً الإنسان على امتداد الزمان والمكان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

فحقيقة التنوع والاختلاف الذي عليه الناس؛ أمماً وقبائل، إنما ينبغي أن تفضي إلى تحقيق مشترك التعارف والتعاون بما هو تبادل اجتماعي وثقافي وتعايش حضاري، وذلك على قاعدة المساواة، ودونما تمايز أو استعلاء من أي طرف، قال ابن عطية الأندلسي في تفسير هذه الآية: "أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون لأن تتعارفوا، ولأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب."[٥٢]

وإذا كان موضوع حقوق الإنسان مكوِّناً أساساً من مكونات المشترك الإنساني، فإنَّ التعاون عليه على أساس الإخلاص والجدية واجب إنساني ملح، يقول عبد السلام

[٥١] المرجع السابق، ص٨٩٥.

[٥٢] ابن عطية الأندلسي. **المحرر الوجيز**، تحقيق: المجلس العلمي بتارودانت، المغرب: طبعة وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٩١م، ج١٥، ص١٥٤.

ياسين: "لا ينبغي أن نتردد في التعاون المخلص مع نداء الضمير الإنساني الرائع الذي يدفع الجمعيات غير الحكومية عند نظرائنا في الخَلْق للتضحيات المشكورة."[٥٣]

فإشاعة ثقافة التعارف وبناء علاقة التعاون بين أمم الأرض ومجتمعاتها وثقافاتها وحضاراتها، من شأنه أن يزيل فتيل التوتر بين الدول، ويقلل من النزاعات والحروب بين الأمم، ويعمل على تنمية آفاق التواصل الحضاري وتعدد أشكال عمارة الأرض.

٣. أولوية السلم العالمي:

من مقاصد الشريعة العامة حفظ نظام التعايش بين الناس في الأرض؛[٥٤] لأنَّ الإسلام رسالة رحمة للعالمين، ولا يتم التواصل والتفاعل الإيجابي مع هذه الرسالة إلا بانتفاء عوامل التوتر والإكراه والحروب، التي تفتن الإنسان وتصرفه عن سماع الخطاب الرباني، وسيادة الأمن والوئام، لذلك ألفينا القرآن يرسي قواعد السلام والأمن بين الناس جميعاً، ويلزم بالدخول ابتداء في السلم فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ (البقرة: ٢٠٨).

وحقيقة السلم المأمور به في الآية عند الطاهر ابن عاشور الصلح وترك الحرب والمسالمة،[٥٥] وذهب رحمه الله إلى أنَّ الآية دالة على أصالة السلم ومبدئيته في الإسلام، وهو رفع التهارج.[٥٦] ومعنى ذلك أنَّ اللجوء إلى الحرب حالة استثنائية مضبوطة يقتضيها واجب حماية السلام في العالم، وحين تنتفي عوامل الإخلال بالسلام يصبح من الواجب -بمقتضى الأصل- الرجوع إلى قواعد السلام، وهذا ما تؤكده قواعد التعامل مع العدو المحارب في قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (الأنفال: ٦١).

وهكذا يظهر جليّاً أنَّ القرآن الكريم يرسي قواعد بناء السلم العالمي ويؤسّس نظام التعايش على الأرض بين خلق الله أجمعين، لأنَّه شرط أساس في تحقيق مقصد التعارف

---

[٥٣] ياسين، عبد السلام. **العدل الإسلاميون والحكم**، الدار البيضاء: مطبوعات الأفق، ٢٠٠٠م، ص٣٦٣.

[٥٤] الفاسي. **مقاصد الشريعة ومكارمها**، مرجع سابق، ص٤٢ و٦٣.

[٥٥] ابن عاشور. **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٧٥.

[٥٦] المرجع السابق، ج٢، ص٢٧٨.

والتعاون والتبادل بين مختلف الثقافات والحضارات والمجتمعات، وهو الآن مطلب مشترك عزيز لشعوب العالم، ينبغي أن يسعى الجميع صدقاً، وعلى رأسهم المسلمون، بما يملكون من قيم خلقية سامية، ومبادئ حضارية عالية، تفتقر إليها مجتمعات الإنسانية، لإنهاء حالات التوتر والحروب التي تجري الآن في مختلف مناطق العالم.

ويرى جمال الدين عطية أنَّ من وسائل حفظ السلام "إيجاد تنظيم دولي يحقق الأمن الجماعي، وتنظيم التعاون في المجالات المختلفة وترتيب المعاهدات بين الدول والإشراف على تنفيذها."[٥٧]

خاتمة:

في ختام هذه الجولة في رحاب منهج القرآن في بناء المشترك الإنساني، أود تقرير ما يلي:

إن حقيقة مفهوم المشترك الإنساني تمثل حاجة إنسانية حقيقية من المروءة والقيم الخلقية والمبادئ الحضارية، منشؤها الفطرة الإنسانية ومستندها الشرائع السماوية، وفي مقدمتها شريعة الإسلام الخاتمة، ولا ينبغي أن يشوش على هذه الحقيقة للمشترك الإنساني، التوظيفُ العولمي للمفهوم الهادف إلى محو الخصوصية الثقافية للشعوب وتمييع القيم الخلقية الإنسانية.

فأصالة هذا المفهوم ثابتة في وحي الله المسطور وكونه المنظور، ذلك أننا تتبعنا منهج القرآن الكريم في بناء المشترك الإنساني، فألفيناه في غاية الوضوح والشمول مع العمق، حيث حظي مفهوم المشترك الإنساني ببناء متين على قاعدتين كلّيتين: إحداهما: تكوينية، تمثل قصد الله الكوني الناظم لحركية نظام الكون المطردة، وثانيتهما تشريعية تعبر عن قصد الله الشرعي الناظم لحركية الفعل الإنساني الاختيارية.

فركزت القاعدة التكوينية على الأسس الضرورية المشتركة بين الإنسانية والجوامع الضابطة لما اختلف من فروعها، في حين أتمّت القاعدة التشريعية البناء على نحو شامل

[٥٧] عطية، جمال الدين. **نحو تفعيل مقاصد الشريعة**، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٦٩.

ومتكامل، فربطت المشترك الإنساني بالجوانب الثلاثة: العقدية، والمقاصدية، والفقهية، فجاء البنيان راسخاً وشامخاً.

وحتى إذا ما تعلّق الأمر بصياغة أولويات المشترك الإنساني الراهنة لكل عصر، فإنَّ المسلك الأمثل والمخرج الأفضل الآمن هو المنهج القرآني الذي يستجيب لفطرة الإنسان ويراعي سنن الكون.

فهذا التأسيس القرآني التأصيلي لمفهوم المشترك الإنساني على هذا المنهج الشامل والمتكامل، يجعل المسلمين أقوى من غيرهم في إدارة حوار الثقافات والتواصل بين مختلف الحضارات من منطلق حضاري وعلمي ودعوي متين، كما أن تشبّع المسلمين بمفهوم المشترك الإنساني كما أسسه المنهج القرآني، يؤهلهم موضوعياً لحسن تدبير الاختلاف مع المخالفين في العالم، فالذي لا يقوى على بناء الائتلاف مع المخالف حقيقة وصدقاً لا يستطيع أن يحسن تدبير الاختلاف معه. فحاجة الإنسانية في العالم الآن إلى من ينشر فيها دعوة بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف حاجة ملحة، والمرجعية الإسلامية هي أقوى مرجعية حضارية قادرة على تلبية هذه الحاجة، وبناء السلم العالمي الذي تنتقل الإنسانية بموجبه من واقع الاقتتال والاحتراب، إلى أفق التعاون والتكامل.

ولعل القيام بهذه الفريضة الدعوية الحضارية في خدمة الإنسانية يفتح آفاقاً واسعة جديدة من التمكين الحضاري للأمة الإسلامية، لا سيّما بعد أن تزول الحواجز وتقلَّ العوائق التي تحول بين الناس وتلبية حاجاتهم من حضارة الإسلام، وينكشف التوظيف التآمري لمفهوم المشترك الإنساني الذي تروج له بعض الدوائر الغربية.

ومن القضايا التي تستدعي من الباحثين تفصيل القول فيها قضيتان مهمتان؛ إحداهما نظرية وأخرى تطبيقية، أما الأولى: فتتعلق بالحاجة العلمية والعملية الماسَّة إلى بناء فقه المشترك الإنساني جمعاً وتأصيلاً وتقعيداً وتنزيلاً والإجابة عن سؤال العلاقة بين المشترك والمختلف الإنسانيين، وحدود المشترك وبداية المختلف. والقضية الثانية؛ ترتبط

بضوابط توظيف المشترك الإنساني في بناء جسر التعارف والتعاون الإنسانيين، ومدى إمكان تدبير المختلف الإنساني في اتجاه بناء أجواء السلم العالمي الذي دعا إليه القرآن الكريم، والكيفية التي يمكن بها ضبط الحديث عن المشترك الإنساني، لينطلق من عمق المرجعية الإسلامية في اتجاه بناء آفاق الحضارة الإسلامية المستقبلية، ولا يكون انسياقاً مع مقتضى العولمة الثقافية تحت ما يجري الآن من الضغوط العالمية على العالم الإسلامي ومرجعيته الحضارية.